الفكر العربى

إعادة اكتشاف مفكر عربى حديث ٢

يعد هذا البحث القيم بداية للاهتمام بفكر واحد من الرواد المجهولين للثقافة العربية الحديثة الشيخ طنطاوى جوهرى الأزهرى الذى اقام بناء فكريا شامخا اعتمادا على فهمه الخاص لكل من التراث الاسلامى العربى ، والفكر الغربى على امتداده ، وواقع المجتمع المصرى فى مطلع القرن وواقع الأمة العربية والعالم المحيط بها فى ذات العصر ، وفى الجزء الأول من هذا البحث الاكتشافى الهام كشف لنا الكاتب استاذ مساعد الفلسفة الحديثة فى جامعة القاهرة بدايات الشيخ الجوهرى من تفسيره المعاصر الهام للقرآن الكريم التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم ، الذى وصف بانه كان فتحا لعصر جديد فى علم التفسير وفى تاريخ علاقة العقل العربى بالعلوم المنهجية فى وقت واحد حيث قدم الشيخ الجوهرى اول تفسير لكتاب الله فى ضوء مناهج العلم الحديثة مبينا علاقة كلام الله الجذرية بالرؤية العلمية للعالم التاريخى والطبيعى على السواء .. وكشف الكاتب انواعا من الإهتمام الجزئى بتراث الشيخ طنطاوى .. وفى هذا الجزء الثانى ، ..نقرا عن فلسفته ، الاجتماعية والسياسية والأخلاقية التى ارتبطت بالمنهج العقلانى وبالفهم العميق لحقيقة الاسلام فى آن واحد ..

سامى خشبة

طنطاوى جوهرى

الأزهرى: الأصالة والعلم والتفتح الفكرى !

- التجديد الفكرى والاستناد الى العقلانية
- السلام العالمى يبدأ بنقد الحضارة المادية
- قصة ترشيحه لجائزة نوبل للسلام !

.. ولقد كان للمفكر الوطنى مواقف ضد الاحتلال الانجليزى للبلاد ، وكانت كتاباته تهدف الى تجميع القوى الاسلامية المختلفة فى اطار وحدة جامعة على اسس اسلامية عقلانية مصحوبة بفهم معاصر لنظم الحياة المختلفة ذى نهج اصلاحى . وقد طمان هذا النهج الدوائر الغربية ، كما يتضح مما كتبته الجمعية الملكية الانجليزية - التى تناولت الخطاب الطنطاوى فى الاطار الابستمولوجى المعرفى لا السياسى الثورى - تعليقا على كتابه نهضة الأمة وحياتها بقولها : ان الانجليز مطمئنون إلى ان الشيخ لم يرد بلفظ النهضة ثورة يثيرها ، وانما اراد الاصلاح ورقى الأمة

فهو اقرب الى محمد عبده منه الى الافغانى] وليس فى ثنايا كتبه مايحض على الثورة او يشير الى عصيان . وفى ختام المقال تذكر الجمعية رايه فى سياسة الامم وهو فى الحقيقة مقصود الكتاب الذى وضع للحكومات الدستورية نظاما جميلا ، اذ ابان كيف يكون التشابه بين جسم الانسان ووظائف اعضائه ؟ وماالحكومات العادلة ؟ وكيف ينوب فريق من الامة عنها ؟ وماطريق الانتخاب ؟ وينطبق نفس الراى على كتابه النظام والاسلام الذى كان ايضا مجموعة مقالات نشرت بالمؤيد ، وقد ترجم ايضا الى التركية والهندية .

وفى نفس الاطار نجد كتابه جمال « العالم » الذى يتفق من حيث الاسم مع نظام العالم والامم والزهرة فى نظام العالم والامم ويتفق من حيث المحتوى ايضا مع هذه الكتاب ومع التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم حيث ينتقل المؤلف من ذلك النظام والابداع والجمال الموجود فى العالم ليعبر عن قدرة الخالق الذى اوجد هذا العالم ، وهو وان كان يستخدم نفس الادلة التقليدية التى يستخدمها الفلاسفة ، الا انه يستعين فى ذلك بالدراسات العلمية فى مجال الطبيعة والحيوان والطير والهوام والحشرات وهى سمة تظهر فى كل كتاباته مما جعل كثيرا من الباحثين يؤكد تميز الكتاب وصاحبه بحب الطبيعة حبا غير خفى . الا ان مايستوقفنا هنا هو مناسبة تاليف الكتاب التى توضح الاتصال وعدم الانفصال بين اهتمام الشيخ الدينى والعلمى وهدفه فى ترقية الامة ونهضتها ، فقد كان الكتاب نتيجة نقاش طويل بين الشيخ وبين شاعر النيل حافظ ابراهيم الذى استمع طويلا لافكار هذا الكتاب ونصح الشيخ بقوله : لودون هذا الكلام فى كتاب لترقت الأمة المصرية .

ويهدف بكتابيه جواهر العلوم وميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر الى نفس الغاية . الكتاب الاول وضعه على هيئة رواية - وهو نفس مافعله فى اين الانسان ؟ - وقد قررت وزارة المعارف على طلابها هذا الكتاب ، الذى جعله الشيخ كما يذكر لنا سلما الى فهم ماهو ادق وارقى فى الفكر هو وميزان الجواهر وذكر فيه بواطن العالم وقواها وعجائبها الباطنة

رابطا بين ارائه الكونية واسسها الفلسفية] مع المقارنة بين اراء الفلاسفة الاقدمين ومقابلته بكلام الفلاسفة الاوربيين ، ووزن الأقوال بالحجج العقلية . والكتاب الثانى ميزان الجواهر يدور ايضا حول التفسير العلمى لحقائق الكون وفيه يظهر اتفاق اراء المفسر مع اراء السابقين من علماء المسلمين مثل الغزالى والرازى . يقول الشيخ حمزة فتح الله فى تقديمه للكتاب مخاطبا مؤلفه : ولقد ذكرنى ميزانك ماقاله السعد فى شرح المقاصد نقلا عن الامام حجة الاسلام فى اثناء تعريف علم الكلام .. وماقاله القطب الرازى فى شرح مطالع الانوار .. والشيخ الاكبر فى فتوحاته .

وفى كثير من أعمال الشيخ الجوهرى مايؤكد ان كتابته كانت استجابة من المفكر لحاجات الواقع فقد جاءت رسالته فى اصل العالم ردا على تساؤل من الشيخ عبد العظيم فهمى الطالب بالجامع الاحمدى بطنطا يسال فيها عن اصل الكون ومادته الاولى والنظرية العلمية التى تفسر طبيعته ومن هنا كانت رسالته فى اصل العالم من الرسائل الفلسفية الهامة التى توضح راية فى مسائل الانطولوجيا والكونية الكبرى معتمدا على النظريات العلمية الحديثة التى قال بها لابلاس وامثاله وجاءت ترجمته لكتاب كانط فى التربية واعتقد انه اول من نقل كانط للعربية واختيار كتاب التربية كان استجابة لمطلب من مجلة النهضة النسائية ليكتب شيئا يتعلق بتربية النشء وطرق معاملة الاطفال والمبادىء التى على الام الالمام بها لاعداد جيل صالح

وفى نفس الاتجاه الاساسى لاعمال الاستاذ الفيلسوف ياتى اهم اعماله الجواهر فى تفسير القرآن وبهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية ويبداه الشيخ كعادته بان الانسان مهيا بفطرته لقبول الفلسفة ويتحدث فى تاريخ علومها ، ويتوقف امام عناية الدولة الاسلامية بالفلسفة والترجمة ويبين جهود الفارابى ثم العلاقة بين الدين والفلسفة ، والصابئين ويتحدث عن تاريخ الامة اليونانية فى الفلسفة منذ القدم ، وسقراط وافلاطون . وكتابه القرآن والعلوم العصرية كما جاء على غلافه خطاب الى جميع المسلمين ، وان الصناعات والعلوم يامر بها القرآن وان الامراء والعلماء واغنياء المسلمين هم المكلفون بذلك وباحكام الرابطة بين الامم الاسلامية عموما . ويقوم هذا الخطاب على اعمال العقل فالعقل الصحيح والراى الرجيح والعمل بهما المنجى فى الدنيا والاخرة . وفى سوانح الجوهرى يبين لنا كيفية ترقية الامة عن طريق الاقتصاد وترقية الصناعة والزراعة وحركة التعليم من اجل نهضة اسلامية شاملة .وبالاضافة الى تلك الكتابات الدينية التى تحاول تفسير ايات القرآن بما اكتشفه العلم الحديث وذلك باعمال العقل الانسانى فى الكون والطبيعة من اجل دعوة المسلمين الى النهضة كيف تعامل العرب مع هذه الفلسفات بحثا ودراسة .

وتشمل الكتابات والاوراق الفلسفية التى تركها لنا الشيخ بالاضافة الى محاضراته بالجامعة المصرية الحرة التى القاها فى العام الدراسى ١٩١٢ - ١٩١٣ عدة كتب ورسائل اخرى منها : « رسالة الحكمة والحكماء » التى تحتوى على مجموعة من الدراسات تحمل نفس خصائص اسلوب الشيخ وتعالج نفس الاهتمامات .

وتاتى محاولته الجادة - التى يبدو فيها متاثرا بكانط من جهة وبالعلوم الرياضية من جهة اخرى - من اجل صياغة نوع من السلام العالمى واليوتوبيا الشاملة التى تجمع الشعوب كلها فى اطار وحدة انسانية كما يظهر فى كتابيه احلام فى السياسة والسلام العالمى واين الانسان اللذين اعتز بهما كثيرا وارسلهما الى معظم مفكرى العالم الحديث لدعوتهم الى رؤيته واستجاب له كثير منهم ، ون مقدمتهم المستشرق الايطالى سانتيلانا الذى سبقه فى التدريس بالجامعة الاهلية حيث لخص الكتاب فى مجلة العلوم الشرقية التى يشرف عليها واشاد بالشيخ وافكاره فالكتاب من الصحف العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ افكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية والحق يقال انه لعمل انسانى عظيم فى قالب احتجاج سياسى ولم يك كتابه موجها الى المصريين فقط بل للعالم اجمع المسالة التى يريد حلها هى مسالة العالم كله بالاجماع .

ويمثل كل من احلام فى السياسة والسلام العالمى وكذلك « اين الانسان ؟ » محاولة اولى مبكرة فى التفكير اليوتوبى العربى المعاصر ، والذى نجد فيهما صدى لماقدمه كانط ويمثلان معا نظرية المفكر المصرى فى السلام العالمى فهو يسعى الى مماثلة نظام المجتمع البشرى بما عليه الكون والطبيعة من اتفاق ائتلاف يريد تحويل النفوس فى المجتمع من الطبيعة السبعية من سبع او بهيمية الى انسانية بشرية يحل بينها التعاون والتوافق بدلا من النزاع والصراع وهذا ماشاد به المستشرقون الذين اطلعوا على ابحاثه وبعض الباحثين والكتاب العرب .

ولاهمية هذين الكتابين نعرض بايجاز اهم افكارهما لبيان جهود الشيخ فى الدعوة الى السلام العالمى والاسس التى تقوم عليها هذه الدعوة . فالحكيم الفيلسوف يحاول فى كتابه اين الانسان : بيان استخراج السلام العام فى الامم من النواميس الطبيعية والنظامات الفلكية والفطر الانسانية ، وبنيان السياسة على اساس الطبيعة وان مدنية اليوم حيوانية ودعوة الناس للانسانية الحقيقية وبيان ان الانسان لم يفهم انسانيته . ولم يستخرج قوته . وخطاب موجه لفلاسفة الامم ونوابها وملوكها ودعوة الاولين لبحث هذا الموضوع . والاخرين للتعاون على العمل . وهذا [الكتاب] عبارة عن رواية ومحاورة بينى [طنطاوى جوهرى] وبين روح من الأرواح الفاطنة بمذنب هالى لما اقترب من الأرض وسال عن السلام العام وعن اخلاق نوع الانسان وهو عشرون فصلا يتناول فى الفصل الاول مقدمة الكتاب فى احوال مذنب هالى وعجائبه وسيرته ودورته واقترابه من الارض وفى الفصل الثانى سؤال عن حال الانسان وقول كانط الالمانى الانسان لم يتعلم العلم عن اعلى منه ولو تعلم لكان ارقى .

د . أحمد عبد الحليم عطية
جامعة القاهرة

ويدور الفصل الثالث حول اخلاق الانسان وكيف كانت طبقاته العليا فى رذائلها كطبقاته السفلى فى جهلها ودناءتها والرابع فى فضائل الانسان وعلومه ومعارفه والخامس استعداد الانسان للعلوم والأخلاق والسادس فى انواع الحكومات والفلاسفة والسابع عن المادة والعقل والثامن يدور حول الحكمة فى المادة والعقل . والتاسع يتناول الفلسفة القديمة والجديدة وكيف كان توزيع العقول على افراد الانسان والمنافع على الأرض والعاشر فى المنطق والاخلاق والسياسة وفيه - كما يقول المؤلف - الحقيقة المرة فى مقارنة السياسة بالقضاء والتعليم .

وتتناول الفصول بعد ذلك الصعود الى كوكب جديد ومشاهدة الجمال والعدل والنظام فى السماوات ومقارنة ظلم الانسان بالعدل فى عالم السماوات وفى الفصل الرابع عشر يقدم تحليلا للمدنية العصرية . ثم الوحدات الانسانية من اللغة والدين والوطن والجنس والمعاهدات ويناقش فى الفصل السادس عشر مسالة الاقوى والاضعف ويتساءل فى الفصل التالى على اى قاعدة تبنى سياسة الامم ويتبعه بالفصل الثامن عشر فى درس تعليم الاطفال الحب العام والفصل التاسع عشر مجلس الحكماء وبيان ماوصلت له الامم وشرح معانى الحكمة والفصل الاخير بيان السبيل للوحدة العامة فى سائر الامم والممالك والدول وفيها مجمل الكتاب .

ونجده فى كتابه احلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام يحاول بيان الصورة المثالية لما ينبغى ان يكون عليه نظام العالم والسبل التى توصل الى تحقيق السلام العام بين العالم اجمع . وقد ذكر المؤلف انه عرج على السماء وطاف بها حتى وصل الى احد كواكب الجوزاء ووصف مافيه من جبال وانهار وممالك وقصور ومجالس الفلاسفة الذين امتحنوه فى الحساب وفى السياسة معا . وقد برهن المؤلف على ان سياسة الامم اذا لم يكن بناؤها على حساب كحساب العلوم المختلفة فان الدمار سيحل بالنوع الانسانى يقول : حق علينا ان نسعى حثيثا الى اتحاد هذه الامم وتقريب مسافة الخلف بينهم ولاسبيل لذلك الا بان نبنى سياسة الامم على القواعد التى تبنى عليها العلوم الطبيعية والرياضية

لم يكتف طنطاوى جوهرى بدور المفكر المتامل الذى يبحث فى ائتلاف الكون وايجاد نظام عام لسياسة الامم بل سعى للدعوة الى هذا النظام بارسال دعوته الى كثير من المفكرين وذوى الراى فهو لايكتفى بان يفكر فى السلام العام بل يعمل من اجله يقول انى اعلن الامم جمعاء بهذا النظام السياسى الموافق لنظام هذه العوالم التى نعيش فيها .. ان هذه هى الطريقة المثلى الطبيعية لسياسة الانسان فى هذه الحياة .

وقد راى البارون كارادى فو - فى الجزء الخامس من كتابه مفكرو الاسلام - فى عمل الحكيم الفيلسوف مدينة فاضلة حديثة ويوتوبيا معاصرة حيث يقول : وكتاب اين الانسان هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية فهو فى هذا يشبه الفارابى من حيث اصل الفكرة وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج وهو فى هذا الاسلوب يذكرنا باساليب علمائنا وادبائنا فى اوربا مثل : توماس مور وكامبانيلا وهانرينر والدوس هكسلى

ان جهود الشيخ الحكيم طنطاوى جوهرى اهلته للدعوة للسلام من منطلق اسلامى مبنى على تفهم واع للعلوم العصرية وقداراد مشاركة مفكرى العالم له فى دعوته فارسل لهم كتاباته وكان بذلك اول مصرى يرشح لهذه الجائزة وقد اهتمت الخارجية المصرية بهذا الترشيح وقام الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم بناء على طلب الخارجية بفحص كتب الشيخ المقدمة ولانه من شروط التقدم لهذه الجائزة ان يكون المرشح من اساتذة الجامعة او ان يرشحه احد الوزراء او احد اعضاء البرلمان او استاذ جامعى فقد تطوع الدكتور مصطفى مشرفه عميد كلية العلوم والدكتور عبد الحميد سعيد عضو البرلمان والرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين وقامت الخارجية بارسال مؤلفات الاستاذ الى البرلمان النرويجى مع تقرير عن جهوده فى سبيل العلم والسلام .. وفى اثناء ذلك عاجل القدر الرجل فى ١٢ يناير ١٩٤٠ ليتوقف كل شىء فالجائزة لاتمنح الا لعالم عبقرى ادى خدمات للانسانية ومازال على قيد الحياة .